التراث عزز صمود الامة واعطى للثورة العربية مستواها العالمي

أيها الرفاق المناضلون[1]

يا جماهير أمتنا العظيمة

في هذه الذكرى، ذكرى انعقاد المؤتمر الاول لحزبكم. . . حزب البعث العربي الاشتراكي قبل تسع وعشرين سنة، نتوجه بالاجلال والاعتزاز الى امتنا العربية المجيدة التي الهمتنا امجادها وعظمة تراثها ان نتقدم للعمل الثوري مستمدين من ثقتنا بها الثقة بأنفسنا.

ونتوجه بالاكبار والحب الى جماهير امتنا العربية، الشعبية المناضلة، التي ولد البعث منها ولها، والتي كانت دوما تغذي نضاله باصالتها، وتحميه من المؤامرات العديدة التي تعرَّض لها لقتل اندفاعه واجهاض ثوريته.

ونتوجه بالتهنئة الى كل البعثيين المناضلين في كل مكان، الذين صمدوا في دروب النضال، وثابروا على السير رغم العراقيل والمشقات، والصعوبات التي واجهوها.

ونتوجه بمشاعر الاكبار والوفاء الى ارواح شهداء البعث الذين اعطوا لنضال الحزب، باستشهادهم وتضحيتهم، جدية العمل التاريخي.

لقد ولد الحزب نتيجة للمعاناة التي كانت تعيشها الجماهير العربية، والتحديات

---

(١) كلمة في السابع من نيسان عام ١٩٧٦، لمناسبة الذكرى التاسعة والعشرين لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي.

التي كانت تواجهها امتنا وشق طريقه الصعب وسط العداء الشديد، وواجه الكثير من التجني والافتراء، لان فكرته جديدة واهدافه كبيرة تشكل خطرا على مصالح فئات عديدة قوية ومسيطرة. . . وقد لاقى الحزب من عداء هذه القوى ومؤامراتها الشيء الكثير، كما تعرض لمؤامرات ربما كانت اقسى وأشد من مؤامرات الرجعية والاستعمار من قبل قوى كان من المفروض ان تكون حليفة له في دروب النضال.

ان الذي انقذ الحزب دوما، وساعده على مواجهة كل الصعاب والتغلب عليها، ومتابعة الطريق، هو صدقه مع نفسه وصدقه مع الجماهير. وهذا هو الذي فتح له طريقه الى قلوب الجماهير العربية التي احتضنته ومنحته من الفرص مالم تمنحه لغيره لانها ادركت، بحسها العفوي وباصالتها الثورية، الصلة العميقة بينه وبينها، ووجدت فيه المعبر عن طموحها واهدافها.

ولد الحزب فكرا وممارسة نضالية في آن معا. ولد من معاناة التخلف في الواقع العربي ومفارقة هذا الواقع مع حضارة العصر ومن العودة الى التراث فقرأناه قراءة جديدة لنهتدي الى اصالتنا وروح شخصيتنا القومية، وكان مدخلنا الى قلوب الجماهير لانها اطمأنت الى ان الحزب هو من نتاج ارضها وجوها وتاريخها. وبمقدار ما كانت افكار الحزب ونضالاته تستهوي الشبيبة العربية والجماهير الشعبية، بمقدار ما كان عداء الاستعمار والطبقات الرجعية المستغلة يشتد ضد الحزب ويعنف. وفي أواخر الخمسينات، عندما حقق حزب البعث مع القائد الراحل جمال عبدالناصر اول تجربة للوحدة في هذا العصر، بلغ ذعر الاستعمار والصهيونية والرجعية العميلة اعلى درجاته، فاستغلوا اخطاء التطبيق لتلك التجربة لكي ينقضوا عليها ويضربوها. ولكن نضال البعثيين في العراق كان آخذا في التوسع حتى اصبح تيارا جماهيريا جارفا حقق انتصاراً رائعا على الحكم الفردي الشعوبي في ثورة الرابع عشر من رمضان. وكان هذا الانتصار ثأرا للوحدة من مؤامرة الانفصال، وفرصة نادرة لتجديد الوحدة واسترداد المبادرة من يد الاستعمار والصهيونية والرجعية، لولا ان دروس ردة الانفصال وفشل تجربة الوحدة لم تنفع في تغيير العقلية الفردية، فظلت القوى العربية الثورية متفرقة ومتنابذة، وظلت المبادرات بيد الاعداء يلحقون بها النكسة تلو النكسة في ١٨

تشرين الثاني ١٩٦٣ في العراق، و٢٣ شباط ١٩٦٦ في سوريا، و٥ حزيران ١٩٦٧ في مصر حتى جاء التصحيح مرة اخرى على يد حزبنا المناضل في العراق الذي سجل في كيفية الاعداد لثورة السابع عشر من تموز، ثم في كيفية تنفيذها والمحافظة عليها والسير فيها بخطى ثابتة متزنة نحو التقدم والعطاء، سجل الحزب مستوى في النضج الثوري لم يكن عاديا ولا مألوفا.

أيها الرفاق المناضلون

ياجماهير أمتنا العظيمة

في العام الاول لنشوء الحزب، وكان البعثيون لايتجاوز عددهم بضعة عشر، جاءنا خبر ثورة الحادي والاربعين (٤١) في العراق، فكانت اول مناسبة يطبق فيها الحزب فكره القومي الوحدوي، فتجند اعضاؤه لهذه الغاية ودعوا الشباب العربي في سورية للتجند في منظمة باسم «نصرة العراق» كان لها دعاء يرددونه هذا نصه:

«اللهم انت الذي اردت أن يكون العرب أمة موحدة قوية هادية تحمل الى العالم رسالتك، تريد اليوم ان تعود اليهم وحدتهم وقوتهم ليؤدوا هذه الرسالة من جديد. اللهم هب لي قوة الايمان، وصفاء الفكر، وصلابة الارادة لأكون جنديا نافعا فعالا في الجهاد الذي يقوم به العراق من اجل وحدة العرب».

وهذا يعني انه منذ البداية كان للعراق دور واضح بارز في تصور الحزب. ولما اصبح للحزب تنظيمه في العراق في اوائل الخمسينات، اعتبرنا ان مرحلة جديدة في مسيرته قد بدأت. وبالفعل فقد تميز ذلك التنظيم منذ بدايته بروح نضالية عالية، وبجدية غير عادية. ترجع من جهة، الى قسوة الظروف السياسية التي كانت تسود العراق في الخمسينات، ومن جهة اخرى، الى نوعية المناضلين الذين اجتذبهم الحزب. وهذه الصفات التي تميز بها الحزب في العراق، اعطته استمرارية وتجربة نضالية وتنظيمية متراكمة، ساعدته على ان يتغلب على النكسات التي اصابته ويخرج منها أصلب عودا واغنى تجربة، كما ان هذه الصفات جعلته مؤهلا لان يصبح القلعة الحصينة للحزب كله، يرفد فروعه بما اكتسبه من تجربة، وما وصل اليه من مكانة مرموقة بين التجارب الثورية في الوطن العربي وفي العالم الثالث.

ان نجاح تجربة الحزب في العراق، الى هذا الحد، وبهذا العمق والرسوخ ليس كسبا لحزب البعث فحسب، وانما هو عامل قوة للامة العربية كلها. . . فلأول مرة، في الحياة العربية الحديثة، تترسخ تجربة ثورية بهذا الشكل، وتمتد جذورها الى اعماق الجماهير في المدينة والريف وبين كل فئات الشعب وقطاعاته، وتصبح مرادفة لحياة هذه الجماهير، ويحصل بين الحزب وجماهير الشعب، تمازج آخذ بالازدياد يوما بعد يوم. . .

ان حزباً بهذه الصفات، لايبنيه الا مناضلون يتميزون بالاخلاق الثورية، وبالجدية في الالتزام، وبالخبرات والتجارب الغنية، وبالممارسات النضالية والروح العملية، ولا شك ان حزباً كهذا، لابد أن يفرز قيادة بمستوى غير عادي. ان القيادة التي تم على يدها التغيير الثوري واستلام السلطة في القطر، بعد نكستين قاسيتين مر بهما الحزب. . . وبعد نكسة قومية اصابت الامة كلها في الخامس من حزيران، هذه القيادة اعطت الحزب في العراق مستوى وملامح مميزة، وحققت له قفزة نوعية فجّرت امكانات القطر العراقي لاول مرة بمثل هذا الاتساع والزخم، وجعلت القطر بقيادة الحزب مهيئا للقيام بالمهمات القومية الكبرى. كما انها عملت، انطلاقا من مقررات مؤتمرات الحزب القومية والقطرية، على بناء الجبهة الوطنية والقومية التقدمية واستطاعت بعد حوار طويل ومكثف مع القوى الوطنية والقومية التقدمية ان تحقق هذا الهدف.

كما سعت الى تمتين علاقة الحزب بجميع الفصائل الثورية والقومية التقدمية في الوطن العربي وفي مقدمتها حركة المقاومة الفلسطينية.

ونجحت في إقامة علاقات متينة مع كثير من حركات التحرر في العالم الثالث ومع دول عدم الانحياز. واقامت علاقات متينة مع الدول الاشتراكية. . . وكانت في كل هذا تنفذ بأمانة، قرارات المؤتمرات الحزبية. . .

الا ان المستوى الفذ في تجربة حزبنا في العراق يتجلى في تأميم النفط، وفي المشاركة الفعالة للجيش العراقي في حرب تشرين، وفي حل المسألة الكردية حلا نابعا من مبادىء الحزب الذي لايكتفي بتحقيق السلام الداخلي والاستقرار فحسب،

وانما هدفه وغايته ان يكون الحل نموذجيا مستلهما من عقيدته الانسانية، ومن روح التراث العربي الاسلامي.

أيها الرفاق المناضلون

يا جماهير أمتنا العظيمة

ان ما نشاهده في الاوضاع العربية من تمزق وتناحر وانهزامية وتردٍ، لهو مما يؤلم لكنه لايخيف. فهو اذا نظرنا اليه من الخارج وجدناه ناتجا عن تركيز وتكثيف للمخططات الاستعمارية الصهيونية التي ضاعفت إعدادها وتآمرها أضعافاً بعد الصدمة التي منيت بها في حرب تشرين من تنامي القوة العربية تنامياً غير عادي، وبفترةٍ جدَّ وجيزة، وعلى كل الاصعدة: المادية والمعنوية، القتالية والعلمية والفنية بعد ان كادت هذه القوة الاستعمارية والصهيونية تطمئن الى غلبتها وسيطرتها النهائية على الامة بعد الانتصار السريع والخادع الذي حققته في الخامس من حزيران.

واذا نظرنا الى تلك الاوضاع العربية من الداخل نظرة نافذة متعمقة، فاننا نجد تحت مظاهر التردي والتمزق والاقتتال، وبروز الامراض والعصبيات العفنة... نجد تحت هذا السطح حقائق تدعو الى الاستبشار اكثر مما تدعو الى التشاؤم واليأس، شريطة ان تكون نظرتنا نظرة الملتزم بقضايا الامة اعمق الالتزام، والمشارك فيها كامل المشاركة، لانظرة الحيادي المتفرج. فصحيح ان الانظمة الرجعية والفئات العميلة هي التي بدأت الهجوم على مواقع الثورة العربية وفصائلها المختلفة من حركات وطنية او مقاومة فلسطينية وكان ذلك بدفع من الجهات الاستعمارية والصهيونية وفق تخطيط وتواطؤ مسبقين، ولكن الواقع الأعمق هو ان هذه الفئات الرجعية والعميلة كانت وما زالت تخوض حرباً دفاعية وهي الممثلة لكل ما في المجتمع العربي من تخلف واستغلال وفساد، ومن رواسب الجهل والعزلة المرضية والأحقاد الطائفية التي ولى زمانها، امام الوجه المشرق للمستقبل العربي الذي يتمثل في المقاومة الفلسطينية وفي تحرك الجماهير العربية الكادحة لانتزاع حقوقها وتثبيت قيمها القومية التقدمية مما يهدد تلك الفئات الانعزالية وقياداتها العميلة بالزوال القريب. ان الزمن يسير في خط معاكس لاتجاه هذه الفئات الاستغلالية والمتخلفة، والثورة العربية

تتقدم باطراد. حتى عندما يبدو في الظاهر انها متوقفة او متراجعة فأن تقدمها يكون مستمرا ولكن باتجاه العمق والانضاج.

ولعل ما يشهده القطر اللبناني هذه الايام وما عاناه أبناء شعبنا في لبنان منذ ما يقارب السنة، يمثل ابرز صورة لهذا الجو العربي الذي اشرنا اليه. ان ماجرى ويجري في لبنان ليس حرباً طائفية، ولا هو صراع طبقي، وانما هو صراع بين الامة واعدائها...

صراع بين التقدم والتخلف... صراع بين الوحدة والانفصال... صراع بين النزوع والتوجه الى الحضارة العربية العريقة الاصيلة وبين تبني الحضارة الزائفة المصطنعة القائمة على النقل والتقليد... صراع بين الصمود والتخاذل.

ان هذا الذي يجري في لبنان، يعزز نظرة الحزب الى القضية العربية بأنها قضية حضارية شاملة لكل نواحي الحياة، وانها لاتقتصر على الناحية السياسية او الاجتماعية، وانما هي بحاجة الى معالجة عميقة وشاملة تتناول المجتمع العربي... والانسان العربي من جذوره التأريخية والفكرية والنفسية. لقد كان واضحاً في كتابات الحزب منذ أوائل الاربعينات عندما انتقدنا تلك القومية المجردة التي كانت تتنصل من التراث وكأنه عاهة فتفقد قوميتنا دمها ولحمها وروحها وعمقها، وتترك الطوائف الاخرى أسيرة لعزلتها واغترابها وارتهانها للثقافات والولاءات الاجنبية المعادية، بدلاً من طرح المسألة على حقيقتها ووضوحها لمساعدة هذه الطوائف على تطوير نفسها ومراجعة مواقفها وعاداتها واكتشاف ذاتها وطريق مستقبلها. كما سبق وقلنا ان مشكلة لبنان مع العروبة ليست إلا مشكلة تقدمية العروبة...

من المفارقات الجارحة في ربع القرن الاخير، اقدام بعض الانظمة على القبول بالتسوية السلمية لقضية فلسطين بعد الانتصار النسبي الذي احرزته الجيوش والجماهير العربية في حرب تشرين. هذه المفارقة وحدها تكفي لفضح تواطؤ هذه الانظمة وفضح تركيبها المصطنع المفروض على الجماهير رغم ارادتها وبدعم خفي من الانظمة الرجعية العميلة، ومن الاستعمار والصهيونية المختبئين خلف هذه الانظمة. ولكن الجماهير والجيوش التي استطاعت ان تحرز هذا النصر، وان تظهر

حدّاً كبيراً من التقدم والنضج على مختلف الاصعدة كجوابٍ على الصدمة التي واجهتها الامة في الخامس من حزيران. . . تلك الهزيمة التي كانت بسبب ابعاد الجماهير عن المشاركة في الحكم. . . وابعادها عن النضال. . . فعندما حلت الهزيمة ضعفت سيطرة هذه الانظمة على الجماهير فازدادت جرأة واقداما واستطاعت ان تحقق النصر. . . ان هذه الجماهير والجيوش لن تسمح بان ينقلب النصر الذي حققته بارادتها. . . وبوعيها. . . وليس بإرادة الانظمة التي تحكمها. . . لن تسمح بان يتحول هذا النصر الى نكسة أوجع من نكسة الخامس من حزيران، مهما حاولت هذه الانظمة ان تجعل من أحداث لبنان، بتكثيف البربرية والهمجية وكل اعمال الاجرام في هذا القطر الصغير، وسيلةً لتقضي على روح الصمود والانتعاش. . . روح الثقة بالنفس التي وجدت عند الجماهير العربية بعد حرب تشرين، وقد جاءت النتيجة ايضاً لصالح المقاومة والقوى الوطنية، والأفكار العربية الثورية، إذ نشاهد بداية انقلاب فكري عميق في اوساط الفئات الانعزالية وبداية اهتداء الى الطريق العربي الجديد بدلاً من اليأس والانهزام. . . واثر ذلك ينعكس الآن داخل النظامين السوري والمصري. . . إذ أنّ أية تسوية لم تعد واردة بعد أحداث لبنان، وكان المخطط ان تكون هذه الأحداث ستارا للتسوية وسبيلا إليها. بل لابد ان يزعزع الانتصار الذي حققته الحركة الوطنية مع المقاومة الفلسطينية في لبنان هذين النظامين الساعيين الى التسوية، والأنظمة الرجعية التي ساندتهما من أجل نجاح التسوية. وإمعاناً في المفارقة فإنَّ النظام السوري ما زال يحمل أسم حزب البعث ويتستر بشعاراته. كأن الجماهير العربية التي انضجت وعيها التجارب والنكسات والمعارك يمكن ان تضلل بالتسميات ورفع الشعارات. الجماهير تعرف حقيقتين: الاولى ان جماعة النظام السوري قطعوا كل صلة لهم بحزب البعث منذ ردة ٢٣ شباط سنة ١٩٦٦ التي كانت مقدمة لهزيمة حزيران. والحقيقة الثانية ان الحزب، خلال الخمسة والثلاثين عاماً، لم يسجل تفريطا بحق من حقوق الامة العربية، فكيف بالاعتراف بالكيان الصهيوني الغاصب!! ولايخامرنا شك في ان الجماهير العربية في سورية لن يطول سكوتها عن هذا التزوير الذي يمس سمعة حركة شعبية

ولدت من قلب الجماهير، وكان القطر السوري، بما عرف عنه من وطنية عريقة، هو المهد لنشوء تلك الحركة العربية.

أما المفارقة المفرحة والمتوقعة من قبلنا، فهي ان تهبَّ الجماهير في الارض المحتلة في وجه الغاصب الصهيوني رغم قسوته ووحشيته... ووسط هذا الجو العربي الذي يبعث ظاهره على التشاؤم نتيجة للتمزق والتناحر والتردي والانهزامية والتهالك وراء التسويات.

لقد جاءت هذه الهبَة صفعة قوية للمستسلمين، وتأكيدا على استحالة تمرير أية تسوية سلمية، وبرهاناً جديداً، لمن يريد المزيد من البراهين، على ان الشعب... وان الجماهير التي استردت ثقتها بنفسها وبقدرات امتها بسبب النصر الذي احرزته في تشرين، لن تنساق وراء هذه الحلول، ولن تنخدع بها ولا بالانظمة الداعية لها مهما ادعت من ثورية وتقدمية. كما أن هذه الهبّة، جاءت لتعزز منطلقات الحزب وتحليلاته في أن معركة الامة العربية مع اعدائها انما هي معركة حضارية، سلاحها الاول والافعل فيها هو قيمها وتراثها الروحي.

ان الامة التي ظهرت فيها رسالة بحجم رسالة الاسلام ترفض الخنوع، وترفض التبعية الفكرية والحضارية، ان لها طريقها الخاص واشتراكيتها هي اشتراكية عربية... الامة التي حملت الى العالم رسالة الاسلام لايمكن أن تكون قوميتها سلبية تعصبية عدوانية، فقوميتها هي في أساسها اخلاقية انسانية تحمل مبادىء العدل والمساواة. مستوى الامة العربية هو مستوى الأمم التي لها رسالات انسانية. وانبعاث القومية العربية في هذا العصر يحمل معه بذور رسالة انسانية الى العالم. ولقد حدد التراث لهذا الأنبعاث مستواه منذ البداية. فهو على مستوى الدور الرسالي... في عمقه... في صدقه... في شموله. وهذا المستوى يكون حافزاً وملهماً، كما يكون مراقباً صارماً. فالامة العربية مطالبة بان تنهض... التأريخ يدعوها، والعالم الحاضر يطالبها بأن تنهض لتؤدي دَورها الأساسي الضروري. تصحيح سير البشرية وتقدمه. ليست مطالبة من أبنائها فحسب، ليست مسؤولة عن نفسها فحسب، ان لها دوراً إنسانياً يجب ان تقوم به، لذلك فهي لاتستطيع ان

تتساهل في أمر نهضتها وثورتها. . . أما أن تكون ثورة أصيلة أو لاتكون أبداً.

أعداء الامة العربية يحاربونها على هذا الاساس ومن هذا المنطلق. . . اي انهم يخشون ان تكون نهضتها مبدلة لسير العصر كله. لذلك فهم يضعون في طريق هذه النهضة عوائق من حجم: خلق دولة الاغتصاب الصهيوني في قلب الوطن العربي.

والامة العربية مطالبة دوماً أن ترتقي الى مستوى آلامها، الى مستوى الألم الأعمق الذي هو اغتصاب فلسطين ومسؤولية تحريرها، لان في تحرير فلسطين تحريرا للعالم.

حرية الامة العربية تحرير للعالم والانسانية، واشتراكية الامة العربية تحرير للاشتراكية من سجن التبعية وفقر القالب الواحد، واخصاب لها بخصائص الشعوب المتنوعة وارواء لها من معين الواقع الحي.

وحدة الامة العربية هي في خدمة رسالتها الى الانسانية، وشرط ضروري لاداء تلك الرسالة.

والكلمة الأخيرة في تحقيق ذلك، هي في: التجدد، لأن التجدد هو ارادة الحياة. . . وارادة البقاء والارتقاء.

ولان هذه الارادة، اذا انطلقت ملء قدرتها، ليجرُفَ سيلها ما تبقى من عوائق رجعية وقطرية وعقلية فوقية، فيكون ذلك هو التعبير الصادق عن اصالتنا وحقيقتنا. الاصالة العربية لن تكون في التحنيط والتدجين، بل في الانطلاق والانعتاق وفي ارتعاشة الحرية ونشوة الاعمال البطولية. الاصالة هي ان نكمل ونبدع لا أن نعيد ونكرر ونقلد.

فليبارك الله في الاجيال العربية الصاعدة، المقدامة المتمردة، التي تقتحم المجهول ويغريها الحلم الكبير، حلم الوحدة والتحرير.

تحية حب الى مناضلي الحزب في كل مكان.

تحية الى جماهير امتنا العظيمة.

تحية الى الجبهة الوطنية والقومية التقدمية.

تحية الى كل حلفائنا واصدقائنا.

تحية الى كل حركات التحرر والثورة في العالم.